الباب الخامس

الضحك والفكاهة

ويتضمن الموضوعات التالية :

- مفهوم الفكاهة
- الفكاهة والمجتمع
- من فكاهات الجاحظ
- متى نشعر بالرغبة فى الضحك
- الفكاهة والسرور
- الفكاهة فى الأدب العربى
- شخصية جحا

مفهوم الفكاهة

الفكاهــة عمليــة متعلقــة بالســرور والبهجــة واكتشــافهما وتــذوقهما وإبداعهما، وهي محصلة لثلاثة عوامل أساسية هي :

- الشخص المتفكه بخصائصه والعقلية والانفعالية .
- العمليات العقلية والانفعالية المستخدمة في إنتاج الفكاهة .
- والعمل الفكاهي الذي أنتج .

والضحك تعبير مسموع يرتبط بانفعال البهجة والسرور، وهناك ضحك السرور والفرح والسخرية والمزاح والعجب والعطف والمودة والشماتة والعداوة والمفاجأة والدهشة والبلاهة والسذاجة.

يمكن أن يستخدم الضحك للعلاج النفسي ولمواجهة الضغوط وتقوية جهاز المناعة والابتسامة تعبير خاص بالوجه، وربما تكون مشروع ضحكة، وقد تتصاعد وتتحول إلى ضحكة، وتحيطها في أحيان كثيرة ظلال نفسية واجتماعية،فهي للترحيب لتغطية الانفعال والارتباك، ويمكن إحصاء أنواع من الابتسامات مثل البهجة والتلطيف والرضى والتعاون والاستجابة والغزل والارتباك والطاقة والتوتر، وقد تصحب أيضا حالات السيطرة والاستعلاء.

أنواع الفكاهة

تأخذ الفكاهة عدة أشكال،فقد تكون هذه الفكاهة لطيفة ورقيقة وقد تكون فظّة ولاذعة ولايوجد فرق واضح بين مختلف أنواع الفكاهة هذه:

١- الظرف: يختلف هذا النوع عن معظم الفكاهة في كونه يعتمد على خلفية عقلية ورصيد من الخبرة في الحياة اليومية أكثر من اعتماده على أوجه التضارب التي تنشأ بطبيعة الحال في كثير من المواقف،ومعظم الفكاهة تجلب الابتسامة ولكن الظّرف يجعل الناس ينخرطون في ضحك فجائي .

٢- التهكّم :يُظْهِر التهكُّم الضعف الإنساني ويجعل منه موقفاً مضحكًا . ويحاول التهكّم عادة أن يعالج الحماقة بأن يجعل الناس يضحكون عليها .

٣- السخرية:وهي أكثر قسوة من التهكم إذ إنها غالبا ما تأخذ شكل خطاب لاذع.

٤- الفكاهة التهكّمية:وتحمل في طيّاتها عكس ما يبدو منها ظاهريا. فقد تبدأ هذه السخرية مديحًا أو حديثًا عاديًا، ولكنها تخفي وراء ذلك نقداً لاذعاً ويتم التعبير عن التورية التهكّمية عادة بوساطة نبرة صوتية معيّنة، كما أنها غالباً ما تكون تعبيراً عن واقع الأمر بصورة تخفف من وطأة تأثيره.

٥- المحاكاة التهكّمية والساخرة:وهي تغيير كلمات الشخصية وأخذها على غير معناها لخلق نتائج كوميدية.

٦- المحاكاة: وهي تقليد لعادات شخص آخر أو حركاته أو حديثه من أجل خلق أثر مضحك.

الفكاهة والمجتمع

الفكاهة ذات وظيفة اجتماعية للتواصل مع الناس ولتحقيق التفاعل بين الأفراد والجماعات، وللتحكم في سلوك الآخرين بالسخرية أو إزالة الخوف، ولمهاجمة السلطة السياسية والدينية والاجتماعية، وفي نقل المعلومات لتحذير الناس وتعزيز التماسك الاجتماعي وتحديد أنماط السلوك المقبول عبر النقد والسخرية والكشف عن العيوب الاجتماعية، وتعديل القرارات الخاطئة وتحسين الظروف السيئة.

وهناك النكات العرقية القائمة على أساس الخصائص العرقية والدينية والقومية، وكذلك الصفات الخاصة بمناطق معينة أو جماعة معينة أو نوع معين ذكر أو أنثى أو عمر معين، وقد تتحيز ضد فئة من الفئات.

وتتسم الفكاهة العرقية بالتبسيط والتحيز، كاعتبار شعب معين ذكياً أو ساذجاً وغبياً، ويغلب عليها التقليل من شأن الآخرين، وقد يصعب تفسير اتجاهات النكت العرقية وسبب تحيزها لشعب معين أو ضد شعب آخر، وربما يكون التفسير الرئيس لهذه النكات قائماً على أساس المركز والأطراف، أو بين مطلقي النكات في المركز وهدفها أو ضحيتها عند الأطراف، أو المدن مقابل الأرياف، أو طبقة الصفوة مقابل الطبقة

العاملة، أو المهارة مقابل عدمها أو انخفاض مستواها، أو المنافسة مقابل الاحتكار.

وتشير الدراسات إلى وجود علاقة عكسية بين انتشار النكت السياسية والحريات السياسية، فهي حيلة لمقاومة الظلم وانتهاك حرية الرأي والتعبير.

متى يشعر الإنسان بالرغبة في الضحك؟

يشعر الإنسان بالرغبة في الضحك عندما يسمع نكتة ما، عندما يتعرض لموقف هزلي يحدث أمامه أو يقع فيه أو يضحك عندما يداعبه شخص بالملامسة الجسدية أو بإحداث ألم بسيط على منطقة في جسم الإنسان، مثال: الضغط على عصب الزند عظم الزند أو العظمة المرحة Ulnar nerve وقد يكون الضحك نتيجة لوجود شخصية سادية تهوى التحكم وإيقاع الآخرين في صدمات مؤلمة تحفزهم على الضحك العصبي فالضحك جزء من السلوك الإنساني الذي ينظمه المخ، وتساعد هذه العاطفة الشعورية الإيجابية من الدرجة الأولى الإنسان على أن يوضح نواياه في إطار التفاعل الاجتماعي كما يتبلور بالضحك أحد جوانب الاتصال والمشاركة مع الآخرين، فهو العلامة التي تشير إلى تواجد الإنسان في المجموعة الاجتماعية كما أنه إشارة إلى قبوله للتفاعل

الإيجابي بينه وبين الآخرين وقد يكون الضحك في بعض الأحيان ظاهرة مُعدية، أي أن ضحك شخص قد يحفز على ضحك الآخرين من حوله.

وانتهت دراسات عدة إلى أن الفكاهة ترتبط بالشخصية المبدعة بدرجة كبيرة،وأن الفكاهة بمنزلة المسهل لعملية الإبداع، كما أن عملية الإبداع تيسر إنتاج الفكاهة، فالإبداع والفكاهة كلاهما يقوم على أساس الخيال والمرونة العقلية والطلاقة في التعبير والأفكار والمواقف والعلاقات والجدة والتفرد وللضحك آثار فسيولوجية فهو يستثير النشاط في الدماغ والجهاز العصبي، يزيد ضربات القلب وإفراز هرمون الأدرينالين الذي يعقبه استرخاء،ويعزز جهاز المناعة ويحرك عضلات الوجه والقلب والصدر والبطن والحلق وجهاز التنفس .

الفكاهة في الأدب العربي

لم يعرف أدب الفكاهة والضحك العالمي على مر العصور كاتباً في قامة أديبنا العربي أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الذي ملأ الدنيا وشغلها بفكاهته اللاذعة، وهو القائل من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر فلم يترك الجاحظ شيئاً في زمانه إلا وسخر منه سخرية لاذعة، إلى حد أنه وجه سهام نقده الساخر إلى نفسه فضحك من دمامته وجحوظ عينيه، فقد روى أنه شاهد امرأة من جميلات عصره تسير في شوارع بغداد سافرة الوجه، فتبعها عبر الشوارع وهي راضية مبتسمة، حتى إذا

جاءت إلى السوق دخلت إلى محل صائغ وأشارت له أن يتبعها، فلما دخل قالت للصائغ لقد طلبت منك أن تنقش لي صورة الشيطان وجئتك بهذا الرجل كي تقتبس منه ولم يكن الجاحظ إلا واحداً من أعلام أدب الفكاهة العربي، الذي ازدهر بقوة منذ القرن الثاني الهجري، وتفوق فيه العرب بجدارة على كافة شعوب العالم.

وهناك طائفة من مشاهير العلماء، في فجر الإسلام وضحاه ألفوا في هذا الباب منهم الخطيب البغدادي في كتابه التطفيل والحصري القيرواني صاحب زهر الآداب في كتابه جمع الجواهر في الملح والنوادر والثعالبي صاحب يتيمة الدهر في كتابه نتف الظرف والإشبيهي المستطرف وابن الجوزب في كتابه أخبار الظراف والمتماجنين، وهذه الكتب الفكاهية لا تخلو من فوائد علمية وأدبية، بل هي سجل صادق لتاريخنا السياسي والاجتماعي في زمانها.

ويربط علماء اللغة والأخبار بين الفكاهة والظرف ويتوسعون في معانيها حتى يشمل جمال المظهر والمخبر، وروعة ولطف الخصال ومن هذا قول ابن الجوزي: الظرف يكون في صباحة الوجه ورشاقة القد، ونظافة الجسم والثوب،وبلاغة اللسان وعذوبة المنطق،وفي خفة الحركة وقوة الذهن وملاحة الفكاهة والمزاح،وكأن الظرف مأخوذ من الظرف الوعاء، فكأنه وعاء لكل لطيف.

وقال الكسائي: الظريف: الحسن الوجه واللسان ولكن العرب ينفرون

من الإسراف في المزاح، ويرون أن يكون بقدر ما يجدد الهمة ويزكي النشاط لذلك قالوا:الإفراط في المزاح مُجون،والاقتصاد فيه ظرف، والتقصير فيه ندم وحفل الشعر العربي منذ القدم بالتهكم والهزل، وما الهجاء سوى أحد فنون هذا الشعر، إذ يقوم على التندر بالمهجو والتهكم به وحين أصبح الخلفاء والأمراء العرب القدامى يعيشون في ترف طلبوا من يضحكهم ويسري عنهم، لذلك كثر الأدباء من شعراء وغيرهم على أبوابهم لإضحاكهم بالفكاهات والنوادر، ومنهم أشعب وأبو دلامة وأبو الحسين الخليع وأبو العبر، حتى كان منهم من يقلد أصوات البهائم والطيور ولهجات الأقطار المختلفة تقليداً دقيقاً بأسلوب مضحك،روى الجاحظ عنهم في البيان والتبيين أن من أشهرهم أبا ربوبة الزنجي الذيكان يقف بباب الكرخ فينهق فلا يبقى حمار إلا وينهق معه وحكى الثعالبي في يتيمة الدهر أن أبا محمد بن زريق الكوفي، كان كاتباً شاعراً، وكان من عجائب الدنيا في الفكاهة والمحاكاة، وكان يتردد على مجلس الوزير المهلبي ويحكي له النوادر ويقلد الآخرين فيعجب الناظر والسامع له،وفي القرن الرابع الهجري صار للشعر الهزلي مجتمع وشعراء متخصصون، على رأسهم ابن الحجاج البغدادي الذي كان يعتبر صاحب مهذلة وأصالة في مدرسة الهزل، وعاصره ابن سكرة الذي أشتهر بهجائه الهزلي لجارية تدعى ضمرة قال الثعالبي: إنه نظم في هجائها عشرة آلاف بيت.

وقيل فيه وفي ابن الحجاج:إن زماناً جاد بهما لسخي وفي مصر عرف محمد الوهراني في القرن السادس الهجري بإمامته في الفكاهة، خاصة برسائله الهزلية ومقاماته .

واستفاضت كتب الأدب الفكاهي بأخبار عرب البادية، من ذلك أن الأعرابي في سبيل الظرف والفكاهة كان لا يحفل بالمال والكسب المادي، فقد روى ابن الجوزي أن أبا نواس خرج إلى السوق لشراء أضحية فاجتمع بأعرابي ظريف، فقال أبو نواس لأجربنه لأرى صنيعه فسأله شعراً:

أيا صاحب الشاة التي قد تسوقها بكم ذاكم الكبش الذي قد تقدما

فرد عليه الأعرابي:

أبيعكه إن كنت ممن يريده ولم تك مزاحاً بعشرين درهما

فقال أبو نواس :

أجدت رعاك الله رد جوابنا فأحسن إلينا إن أردت التكرما

فقال الأعرابي:

أحط من العشرين خمساً فإنني أراك ظريفاً فأقبضن مسلما

فدفع إليه أبو نواس خمسة عشر درهماً وأخذ كبشاً يساوي ثلاثين درهماً وأعلام الفكاهة في الأدب العربي القديم كثيرون،ولعل بشار بن برد وأبا العيناء من شعراء العصر العباسي الأول يأتيان في المقدمة، وأما بشار بن برد فله نوادر ساخرة من أعلام عصره صارت مضرب

الأمثال على كل لسان وتعجب منها الأدباء، لكنها جرّت على صاحبها الويلات والعناء، فبسبب هجائه الساخر جافاه الصوفي واصل بن عطاء وأهدر دمه.

فكاهات الجاحظ

وإذا كان علم الجاحظ في قمة العلم العربي لعصره الذهبي الأول، فإن فن الجاحظ الفكاهي يعتبر قمة الفن العربي الفكاهي لكل عصر ولا عجب في ذلك فالعلم والفن أخوان متلازمان، ويرى فيهما خير ما في أساس التركيب لأن الضحك هو أول خير يظهر من المولود،وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علة سروره، ومادة قوته، يقول الجاحظ ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزح جداً والضحك وقاراً.

لذلك شاعت الفكاهة، وعوامل السرور في الجاحظ الذي يرى ذلك أمراً ضرورياً لتنشيط الذهن وإدخال السرور على القلب، وتزويد الحي بطاقة خلاقة في مجالي العلم والعمل، ولهذا يقوم كتابه البخلاء الذي جمع أروع نوادر الأشحاء وحكايتهم التي يحتجون بها للبخل والاقتصاد، ويورد من الطرائف الكثير، فيقول: ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة وتعرف حيلة لطيفة واستفادة نادرة عجيبة ويقول: وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد ومن أروع ما كتب الجاحظ في هذا المقام رسالة التربيع والتدوير التي سخر فيها من الوزير أحمد

عبدالوهاب، ونعته ووصفه بالعرض والضخامة أو التربيع والتدوير أقام الجاحظ سخريته على أساليب فنية محكمة يخرج في السخرية من موضوع إلى موضوع، ويقلبه على جميع الجوانب،ويمزقه دون أن يحس القارئ بغير الإعجاب بالأديب، والاندماج في روعة بيانه وجمال تصويره، وقد اعتمد الجاحظ على المتناقضات في السخرية من منظر الوزير ومخبره مثل قوله ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقدوداً واسع البطن غيرك، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك فأنت المديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت القصير فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شحماً جمع الاستدارة والطول.

ويرفع الجاحظ الوزير إلى أعلى عليين تهكماً، ثم ينزل به إلى الدرك الأسفل مبالغة في التقريع والسخرية فيقول له: وأنا أبقاك الله أعشق إنصافك كما تعشق المرأة الحسناء،وأتعلم خضوعك للحق كما أتعلم الفقه في الدين ويطنب في ذلك أيما إطناب، ثم ينتقل الجاحظ إلى العلم والحكمة فيسأل الوزير ابن عبدالوهاب: فخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك،وعن سماعك من أفلاطون،وما دار بينك وبين أرسطو طاليس وأي نوع اعتقدت،وأي شيء أخترت؟ فقط أبت نفسي غيرك ولولا أني كلفت برواية الأقاويل ومغرم بمعرفة الاختلاف، ما سمعت من أحد سواك وما انقطعت إلى أحد غيرك إنه يراه جامع العلوم والحكم وهكذا تهكم الجاحظ من الحياة والأحياء وصاغ تهكمه على أساس من

العلم الراسخ والفلسفة العميقة والفن الباهر، بل إنه تهكم من الحياة كلها بصغارها وكبارها، وعلمائها وأدعيتها، بل سخر مما يسمى بالعظمة وجعلها هباءً منثوراً ومع ذلك فهو بسخريته يبصرنا بالحياة، ويدفعنا إلى التواضع والعمل، ولنرتفع عن الصغائر كلها وهكذا سبق الجاحظ بأدبه الساخر فولتير وموليير وغيرهما من كتاب أوروبا الساخرين في القرنين السابع والثامن عشر، وما تلاهما بعد الجاحظ بألف سنة وأكثر.

شخصية جحا

هو أبو الغصن دُجين الفزاري المشهور بجحا اختلف فيه الرواة والمؤرخون، فتصوّره البعض مجنوناً وقال البعض الآخر إنه رجل بكامل عقله ووعيه وإنه يتحامق ويدّعي الغفلة ليستطيع عرض آرائه النقدية والسخرية من الحكام بحرية تامة.

وما إن شاعت حكاياته وقصصه الطريفة حتى تهافتت عليه الشعوب، فكل شعب وكل أمة على صلة بالدولة الإسلامية صمّمت لها جحا خاصاً بها بتحوير الأصل العربي بما يتلاءم مع طبيعة تلك الأمة وظروف الحياة الاجتماعية فيها.

ومع أن الأسماء تختلف وشكل الحكايات ربما يختلف أيضاً ولكن شخصية جحا المغفّل الأحمق وحماره هي هي لم تتغيّر.

شخصية فكاهية حقيقية، لكنها سرعان ما انفصلت عن واقعها التاريخي، وأصبحت رمزًا فنيًا،ونموذجًا نمطيًا للفكاهة في التراث العربي

ومن هنا قيل على لسانه آلاف النوادر أو الحكايات المرحة، على مر العصور ولقد نسي الناس جذوره التاريخية، ولكنهم لم ولن ينسوا أبدًا أسلوبه الضاحك وفلسفته الساخرة.

وعلى الرغم من كثرة أعلام الفكاهة في التراث العربي، فإن جحا يبقى أشهر شخصية نمطية فكاهية، لاتزال حيّة مؤثرة حتى اليوم في الذاكرة الجماعية العربية، الأدبية والفولكلورية والثقافية وشهرته الفنيِّة لا تلغي الدور التاريخي الذي يؤكد أن جحا شخصية حقيقية.

فهو أبو الغصن دُجَيْن بن ثابت الفزاري، ولقبه جحا، وقد عرف بين معاصريه بالطيبة والتسامح الشديدين، وأنه كان بالغ الذكاء، وتنطوي شخصيته على قدر كبير من السخرية والفكاهة.

ووسيلته إلى ذلك ادّعاء الحمق والجنون، أو بالأحرى التحامق في مواجهته لصغائر الأمور اليومية، استعلاء منه على حياة فانية، وشعورًا بعبث الصراع الدنيوي، وإحساسًا بالجانب المأساوي للوجود الإنساني (الموت) في وقت معًا .

لذلك لا غرو أن يعمّر جحا، وأن يعيش مائة سنة، كما يقول الجاحظ وقد شهدت الفترة التاريخية التي عاصرها جحا أحداثًا جساماً كان لها أبعد الأثر في أسلوبه وفلسفته في الحياة والتعبير، منها مأساة السقوط الدموي للدولة الأموية وهيمنة الدولة العباسية بقوة السيف على

مقدرات الأمور العربية الإسلامية،وسط مناخ ثقافي حافل آنذاك بالصراع السياسي والعسكري والمذهبي والعرقي.

ثقافة الإضحاك

كلما ارتقى الشخص الذي يحترف الفن المسرحي بمستواه الثقافي وصقل موهبته بالمعرفة، ازداد نضجا وتألقا في عطاءه لانتزاع البسمة من أفواه جمهوره لأن الثقافة تساعد على الارتقاء بمستوى الفكاهة الراقية، التي لا تخلو من عنصري الذكاء والمعرفة فمبدع النكتة، مثلا، قد يفوق مبدع الأشكال الأدبية والفنية في قدراته الإبداعية وحضور البديهة والنكتة تشبه الحلم، فهي مثله مكثفة،مختزلة،غير واقعية، تعبر عما يجول في العقل الباطن للإنسان من صراعات، وطموح مجهض، وآمال محبطة، فالإنسان يلجأ إلى النكتة إراديا وإلى الحلم لا إرادياً،عندما تصادفه مشاكل وعراقيل، فيستريح نفسياً وجسدياً.

هناك فكاهات عدوانية غالباً ما يسهم الجهل والفقر في ظهورها، يقول مارسيل بانيول،والكبت الجنسي يساعد على ذيوع الدعابات الفاضحة والتوريات الماجنة،والتفاوت الطبقي يؤدي إلى انتشار القفشات الاجتماعية والسخرية على الأثرياء، والقمع السياسي من شأنه ترويج النكات السياسية.

وغالبا ما نخلط بين السخرية والفكاهة، ومردّ ذلك إلى الضحك كعامل مشترك بينهما بصفته الغاية الكبرى والأساسية منهما وهذا لا يعني إنكار

الصلة الوثيقة بين السخرية والفكاهة وبين الإضحاك غير أن السخرية غير بريئة من الغمز واللمز، سواء كان ذلك ظاهراً جلياً أم خفياً لا يُدرك إلا بمزيد من التأمل والضحك المنبعث من الفكاهة ضحك سار ومبهج لكن السخرية مؤلمة موجعة ولو انبعث منها ومعها الضحك وكذلك السخرية ليست هي الهجاء رغم الصلة بينهما، وإن اتفق في الدوافع والبواعث فالهجاء هجوم مباشر لكن السخرية طريقة غير مباشرة في الهجوم،وتعبير يتلطف فيه صاحبه ويلين ومن وراء هذا اللطف وذلك اللين لاذع خفيّ، وإيلام وإيجاع لا يدل عليه ظاهر الكلام، وإنما يختفي بين طياته ويتستر في زواياه ولكن سعير ناره يشع من الأسلوب.

وأحيانا يشعر المتتبع لأعمال بعض الفكاهيين المغاربة أن هذه الأعمال تميل إلى التهريج والبعد عن الفكاهة الهادفة التي تحرك المياه الراكدة فالفكاهي، مثله مثل كل كاتب أو مبدع في الأجناس الأدبية المعروفة، يحتاج دوما إلى الزاد الثقافي والمعرفي لصقل موهبته إن وجدت حتى ينأى عن السطحية .

الفرق بين الاضحاك والاسفاف

يظن البعض أن مصطلح الكوميديا يرتبط بالضحك والهزل والسخرية فقط وتلك هى المصيبة والكارثة فى الوقت ذاته فنحن كشعوب عربية تتمتع من سالف الأزمان بخفة الدم والقدرة على الإضحاك ومواجهة

الصعاب بتلقائية وخفه دم حتى لا نحمل أنفسنا الهموم والأحزان ولعل هذا هو أحد اسباب تقدمنا في تقديم الكوميديا على المسرح أو فى السينما أو التلفاز ولكن ما حدث هو تغيير مفاهيم صناعة السينما في بلادنا العربية وهبوط أناس لا علاقه لهم بالفن علينا من حيث لا ندري.

وأصبح الشغل الشاغل لأغلب المنتجين أو الموزعين هو المكسب المادي فاختلف معنى الكوميديا ومفهوم الاضحاك عندما رأى هؤلاء أن الاضحاك سهل وأن أي شخص قادر على أن يقوم باضحاك الناس رغم أني أراه من أصعب المهن ومن أصعب الفنون عامة وبسبب هذا التفكير الخاطئ والبدائي فقد أصبحنا للأسف الشديد نشاهد إسفافا في صورة اضحاكٍ فبعد ان كنا نشاهد افلام مسلسلات ومسرحيات جميلة تدفعنا الى الضحك من قلوبنا وفي ذات الوقت تحمل مغزى أو قصة أو فكرة أو نصيحة أصبحنا الآن نشاهد استخفافاً بعقول المشاهدين وأصبح غالبية ما يقدم عبارة عن ما يشبه إلقاء النكات فكثير من تلك الاعمال الفنية التي أصبحت تقدم الآن لا علاقه لها لا بالفن من قريبٍ أو بعيد ولا يمكن ان نطلق عليها لفظ كوميديا.

ومع غياب الأخلاق عن كثير من مواقف حياتنا تم إضافة مشاهد العري والاغراء ممزوجة بما يسمونه كوميديا وأسميه إسفافا فأصبحت

الصورة أكثر قتامة وأصبح غالبية ما يقدم عبارة عن خلطة واحدة معدة مسبقا لا علاقه لها بالكوميديا.

فغابت كوميديا الموقف وحل محلها كوميديا القفشات التي لا تسمن ولا تغني من جوع وأصبح الشغل الشاغل للصناع هو الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية ولم يعد الفن يهم للأسف ولم يعد المشاهد يستحق العناء واحترام رغباته في مشاهدة كوميديا راقية تعينه ولو قليلا على متاعب الحياة وتساهم في اخراجه من الوضع السيء الذي يعيشه.

بل عملت تلك الصوره المزرية من الكوميديا على إفساد ذوق الناس وإفساد أخلاقهم وأخلاق صغارهم وأسرهم وأصبح هذا الاسفاف يكرر وكأنه حقق نجاحات تاريخية فأصبحنا في حلقة مفرغة يخسر فيها المشاهد يوما بعد الآخر وتخسر فيه الامة فنا راقيا تميزنا فيه عبر تاريخنا يأتي الآن من يدمره ويُحل مكانه نوعاً من الإسفاف المدمر الممزوج بمناظر العري والتقليد الأعمى وعدم احترام عقليات المشاهدين.

والغريب في الأمر أن لا أحد من هؤلاء المنتجين فكر لماذا تعلق المشاهدين صغار وكبار بأعمال الأزمنة السابقة تعلقاً كبيراً رغم ضعف

إمكاناتهم بالمقارنة بتلك الأيام ولم يقتنعوا أن احترام المشاهد هو أساس النجاح الحقيقي.

ومن يثور تساؤل أليست الأمة التي أخرجت عباقرة الكوميديا من كتاب وسيناريست وممثلين ومبدعين مثل أبو السعود الأبيارى وإسماعيل يس وبشاره واكيم والريحاني وغيرهم الكثيرون ليست قادرة على أن تحافظ على الأقل على هذا التراث الرائع الذي تركه هؤلاء العظماء وأن نقدم فناً راقياً بمعنى الكلمة بدلاً من هذا الاسفاف القاتل والمدمر ؟؟

الإضحاك في السينما لا قواعد ولارسالة

تُثار كل عام تقريبًا بعض القضايا الثقافية أو الفكرية أو الفنية، ويتكرر المشهد بتفاصيله،ولا يصل المتلقي في العادة إلى نتائج أو نتيجة واحدة تضيف إلى ثقافته ما يرتجي من عناء متابعته وقراءته لأولي الفكر وأهل النقد، ويبدو المشهد في النهاية موسماً سنويًّا يعرف المتابع ما يقال فيه مسبقًا.

من تلك المواسم السنوية ما يمكن أن نطلق عليه مجازًا مناحة النقد التي تنطلق مع بداية المواسم الصيفية ومواسم الأعياد؛ حيث تتسابق فيه الأفلام خاصة الكوميدية التي اكتسحت الساحة السينمائية مع بزوغ

نجم جيل الفنانين الجدد وسيطرتهم المطلقة على شباك التذاكر، كما يقال بلغة السينما.

فما إن يبدأ الشباب المترقب لنجومه المفضلين في الاطمئنان والسعادة لنزول الأفلام الجديدة حتى تطالعه المتابعات النقدية في الصحف والمجلات،إن كان من يقرأ أو يتصفح، تنهال بالهجوم اللاذع، والشكوى المريرة من تدنّي مستوى الفن،وخشونة الكوميديا،وسذاجة التناول، والتحذير من الآثار المدمرة للأخلاق والمجتمع إن لم نتصدَّ جميعًا لهذه الكارثة وردّ فعل الشباب- أو الجماهير- هو الإقبال المتزايد على هذه النوعية من الأفلام التي تحقّق له المتعة الحقيقية والضحك من القلب، ناهيك عن ترقُّبه واستعداده لتلقّي الإفيهات والنكت الجديدة من نجومه المحبوبين؛ لتصبح تقليعة السنة، إلى أن يتم تحديثها مع فيلم آخر جديد ويتعجَّب نجوم الإضحاك الجدد ويكادون يُخرجون ألسنتهم للنقَّاد، فهل هناك أصدق من الملايين التي تحققها أفلامهم؟

والمحصلة التي نرصدها مع تكرار هذا المشهد هي التشكيك في الموهبة الحقيقية لصنَّاع هذه السينما وضحالة ثقافتهم، واتهام الجمهور في ذوقه وحسه الفني واختياراته إن لم يكن في أخلاقياته وفي المقابل وصْم النقاد وذوي الرأى بالتعالي والعجرفة وحبّ المخالفة والسباحة ضد التيار، إن لم يكن بالتآمر .

فإذا كان الفنانون يحتجُّون بأن ما يقدمونه يحقق رغبة جماهيرهم، فلا يكفي للناقد أن يقف عند اتهام كلٍّ من الفنان والمتلقّي وحسب، ولكن يجب أن يبحث عن حقيقة الصورة كاملة بكل تفاصيلها بطريقة علمية ربما تساعدنا في رؤية أفضل لواقع نقبل عليه ولا نرضى عنه.

إننا إذا بحثنا عن إجابة علمية تلخص لنا القضية وتضيء جوانبها المختلفة وجدناها تكمن في نقطتين هما: طبيعة الكوميديا وفنون الإضحاك وجنوحها الدائم للخروج عن المألوف وارتباطها بالفحش والمجون والتحرر من المحاذير والتقاليد أيًّا كانت اجتماعية أو أخلاقية وصعوبة الكتابة الفكاهية بالمقارنة بالفنون الأدبية الأخرى، وصعوبة الكوميديا وأدائها بصفة عامة .

يقسم العلماء السخرية والفكاهة إلى أنواع رئيسية عديدة، على سبيل المثال نجد:

ـ الفكاهة الشعبية التي تعتمد على البساطة والسذاجة والجرأة والصراحة واللغة الجارحة الواضحة والمفهومة، في مقابل الفكاهة أو السخرية المهذبة؛ حيث تُبنى على الذكاء والفطنة والعلم والثقافة مع جنوح إلى التورية والغموض .

- الفكاهة البسيطة التي يدركها العامي والمثقَّف للوهلة الأولى؛ إذ تتسم بالسطحية والمباشرة، يقابلها فكاهة مركّبة لا يستشف معناها أو مغزاها إلا بعد أناة وتريُّث وإعمال الفكر و الذهن .

- فكاهة طبيعية تتفجَّر كما يتفجَّر النبع من الأرض حيًّا متدفّقًا، وتنشأ في الفرد والظروف المحيطة به وفي كلامه وطبعه وكل ما يصدر عنه، وفي المقابل نجد الفكاهة المصطنعة تصنعها فئةٌ خاصةٌ لديها استعداد في اللغة أو الشكل أو الحركة مع الاستعانة بما يستثير الضحك من ملابس وأصباغ وحركات شاذة .

- الفكاهة البدائية الخَشِنَة التي ترتع في العاهات الخَلقية والخُلقية، والتجريح الشخصي ولا تتقيَّد بالمعايير الأخلاقية، بخلاف الفكاهة الحضارية،وفيها نجد العاهة تؤلم لا تضحك والمعايير الجماعية لها اعتبارها لا تتجاوزها كما تتسم بالرقي الفكري والثقافي .

تدور التقسيمات السابقة حول نوعين من الفكاهة إحداهما فنية والأخرى لا تنتمي للفن بصلة، تحتاج الأولى إلى فكر وثقافة وحضارة ورقيّ، بينما لا تحتاج الثانية إلى شيء من ذلك بالضرورة إلا أن هناك عاملاً مهماً يؤثر في مسيرة الضحك والإضحاك على مسار التاريخ ومختلف الحضارات، وهو الصلة الوثيقة بينه وبين الفحش والمجون؛

مما جعل علماء النفس يربطون بين الضحك والمسائل الجنسية والإخراجية، وذهبوا إلى أنه المضمار الأكبر الذي تستطيع أن تصول فيه الفكاهة وتجول وبين الضحك والمجون في علم النفس ارتباطًا وثيقًا، وربما كانت اللذة الكبرى في الفكاهة الجنسية هي مظهر لارتياح الأفراد في بعض الأحيان لمخالفة بعض الممنوعات أو التعدي على بعض المحرمات وإذا كان الأمر كذلك علميًّا فلا عجب إذن أن نجد الفكاهات الفاحشة تنتشر في كتب الأدب أو بين الشباب أو في أوساط بعض الفئات النوعية، كمجتمعات الذكور أو النساء المغلقة على نفسها، أو فئات العمال أو المساجين إلخ ويبقى أن نتذكَّر ارتباط ما نطلق عليه فحشًا أو مجونًا بالذوق العام والبيئة، فالألفاظ الخارجة والبذيئة في مكان أو زمان ما قد تكون من الأمور المألوفة في مكان أو زمان آخر؛مما يعظّم من شأن ما يقوم به الكوميديانات الجدد، من تسريب وتمرير العديد من المصطلحات والألفاظ الشاذة إن لم نقل البذيئة.

من تلك البديهيات العلمية يمكننا أن نستوعب ما يقوم به ممثلوا الكوميديا، فليس محمد هنيدي أول من قلَّد امرأة بحثًا عن وسيلة إضحاك مضمونة، فكل زملائه وكل من سبقوه فعلوا ذلك، كإسماعيل يسين، وسمير غانم، ومحمد عوض، وجورج سيدهم.. إلخ وليس محمد سعد أول من بحث عن شذوذ الشذوذ في الحركات والنطق والأفعال من أجل

الإضحاك، فكل ممثلي الكوميديا يفعلون ذلك وإن تفاوتت درجاتهم، ولعل أشهر ممثلي الكوميديا في السينما العالمية الآن يسلك هذا المسلك، أو إن شئنا الدقة قلنا إنه اكتسب شهرته من تلك الطريقة، ونقصد به بالطبع الممثل الأمريكي الكندي الأصل جيم كاري.

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل ما يقدمه لنا هؤلاء مضحك حقًّا

لا أحد يماري في أن ما يقدَّم مضحك بل مضحك جداً إذا أضفنا لها: ولكنه ضحك خشن يجرح الذوق السليم، ويتجرَّأ على الكثير من المعايير الأخلاقية أو على أقل تقدير ليس هذا ما ينبغي أن نربي عليه أجيالنا أولادنا وإذا تذكرنا أن الفكاهة تجنح دائمًا للخروج عن المألوف وجدنا أن عبارة لكنه ضحك خشن فيها السرّ الذي يجذب الجماهير العريضة من الشباب إلى هذه الأفلام.

عندما نسمع نكتة بذيئة فإننا نضحك، وإن فرضت الظروف الاجتماعية علينا أن نتمالك أنفسنا ولا نظهر الضحك فلا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أن النكتة غير مضحكة إنها مضحكة وأكثر إضحاكًا من النكت المهذبة إن وجدت نكتة مهذبة مضحكة من الأصل!

فعلينا ألا نتَّهم الشباب عندما يقبل على هذه الأفلام ويشجِّعها؛ فالسينما هي أداة ترفيه في الأصل، والإضحاك من أعلى صور الارتياح

والرضا النفسي الذي ينشده الإنسان أما كونها يجب أن تضيف أبعادًا ثقافية أو ترتقي بالذوق والفكر فهذه ليست قضية المتلقّي ولا يحاسب عليها.

هنا نصل إلى سؤال آخر ليس أقل من الأسئلة السابقة أهميةً، وهو: لماذا الإصرار على الكوميديا البذاءة الخشنة المباشرة،مع أننا نرى كوميديا راقيةً في السينما المتقدمة؟!

الكتابة الفكاهية تحتاج إلى عقلية فذَّة تجيد الصياغة التي تتوفر فيها الدقة والبراعة في التصوير؛ حيث لا تسمح الفكاهة بأدنى خطأ مما قد لا يستشعر في التراجيديا، ولعلنا نعرف جميعًا أن مجرد نكتة بسيطة لا يستطيع أن يرويها كل إنسان وتستثير نفس الضحك، بل هناك من الأفراد من يُجيد إلقاء النكات وإخفاء مواطن المفاجأة فيها دون غيره .

ويعترف كلٌّ من مارس العمل في الكوميديا- بصورتها العلمية الراقية بصعوبة كتابتها وأدائها على عكس ما يتبادر إلى أذهان الكثيرين، ويُرجع علماء النفس ذلك إلى أن الفكاهة تخاطب العقل ، في حين تخاطب الدراما العاطفة ففي ظل انحدار ثقافي لا تخطئه العين، وفي ظل شهوة الشهرة والاستحواذ على غنيمتها كاملة لا ينازعهم فيها شريك لن يبقى أمام هؤلاء الفنَّانين سوى الكوميديا البدائية، أو الاقتباس وتشويهه

ليصبح صالحًا لما اعتادوا عليه، ولا ضيرَ في كل الأحوال، فالملايين تتدفق،والجماهير تنادي هل من مزيد؟ وهكذا تستمرالعجلة في الدوران، ويتكرر المشهد بتفاصيله المملّة، فجمهور الشباب من حقّه أن يضحك، والفنَّانون من حقهم الشهرة والمال،والمنتجون غايتهم الربح، أما الثقافة والرقيّ الفكريّ فلها الله بعد أن خذلتها مؤسساتٌ حكوميةٌ وجماعاتٌ ثقافيةٌ وأصحابُ رأي وكتَّاب ومبدعون، فضَّلوا الفرجة من بعيد؛ حتى لا يضبطهم أحد وهم مستغرقون في الضحك الهستيري.